القصة العربية في أفريقيا

رؤى نقدية لواقع مرفوض

أحمد محمد عبده – مصر

أفريقيا، القارة السوداء الحظ!، التي ظلمها العالم الأبيض، أكلها لحما وألقى بها عظاما، ها هو ذا الآن.. ذلك العالم المتباهي ببياض بشرته، وقوة عضلاته وذكاء عقله! يلومها على جهلها ويعيرها بفقرها، وما ترزح فيه من جوع وفساد.

إنها أفريقيا.. الإيدز والسحر والجان والأشباح والشياطين والخرافات ومصاصي الدماء وأكلة لحوم البشر، والقهر والقمع والفقر والطغيان وبطش الحكام والتبعية والعصبيات والقبلية والأرض الممهدة للتبشير.

هي أفريقيا التي تعيش –وعلى حد تعبير أحد كتابها- على نباح الكلاب، بين دق الطبول وصمت القبور. ولقد كان لهذا الجو القاتم.. الانعكاس الخطر على كل نواحي الحياة، وكل مظاهر الإبداع الأدبي، الذي هو صورة الحياة. فالإبداع مرآة تعكس صورة الحياة الحقيقية، إنه صدق الضمير كما يتمناه الواقع.

وفي لغة رشيقة ومادة غنية وعميقة، وإلمام بالحركة الأدبية في تشاد، وطبيعة الحياة في أفريقيا بصفة عامة، وفي منهج علمي محكم، جاء الكتاب الشائق في أسلوبه وتناوله، الفريد في تخصصه" القصة العربية في تشاد " للدكتور علي عبد الوهاب مطاوع، الذي عمل أستاذا للأدب والنقد في جامعة الملك فيصل في العاصمة " إنجمينا "، يقدم لنا في البداية مدخلا للواقع يكشف عن حداثة عهد فن القصة المكتوبة باللغة العربية، إذ كانت البداية على يد مجموعة من الشباب المتحمس للغة القرآن وثقافة الأمة، استطاعوا أن يعبروا عما يجيش بصدورهم وصدور شعبهم، بلغة دينهم ولغة قوميتهم التي طمسها المستعمر. ولأن الأدب هو شكل البيئة، والموضوعات التي يتناولها الأدب الإفريقي غير الموضوعات التي يتناولها الأدب الفرنسي مثلا، كان الناتج أن تجد أعمال هؤلاء، وقد سيطرت عليها رائحة السحر والشعوذة ، وحاجة الناس إلى الحرية والعدل واحترام آدمية الإنسان، فالكاتب الحقيقي هو ابن بيئته، والإبداع عامة هو استجابة

لحاجة الأمة، واستجابة لما يجيش في ضميرها.

جاءت صحوة كتابة القصة باللغة العربية في تشاد، في آخر سنوات العقد الأخير من القرن العشرين، فانطلقت أعمالهم من الواقع التشادي الذي يمكن أن نقول: إنه واقع يتصل بواقع أفريقيا كلها، بهمومه وقضاياه ومشكلاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وذلك في واقعية تعبيرية لغوية، ولو تأملنا.. لوجدنا التشابه الكبير في المشهد الأفريقي، سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، بل لا نبالغ إذا قلنا: إن أفريقيا، باستثناء الساحل الشمالي العربي، من مصر حتى المغرب، وذلك لأمور ثقافية وجغرافية وحضارية - إن أفريقيا كلها تكاد تكون إقليما واحدا يتشابه في الشكل والجوهر.

حتى الأدب الأفريقي له خصوصيته التي تشتد وتلتصق به أكثر من أي تميز أدبي آخر لأي بيئة، فحينما نقول: الأدب الأفريقي – فهذا يصبح علما على أدب كل مجتمعات أفريقيا، فكأن أفريقيا دولة واحدة! بعكس الأدب في الشمال مثلا، فنادرا ما نقول الأدب الأوروبي – لأن التمييز والخصوصية المستقلة، تتضح تماما بحيث لا يصح إلا أن نقول: الأدب الإنجليزي، والأدب الفرنسي.. وهكذا..

ويعلل الباحث انزواء الفن القصصي.. المكتوب بالعربية في تشاد وفي غيرها من الدول التي تقرأ القرآن في أفريقيا، التي عانت من ذل المستعمر عصورا طويلة إلى قتل الشخصية الوطنية، وطمس معالمها وهويتها، والازدواجية اللغوية – بين الفرنسية.. لغة المستعمر المتحكم "في تشاد تحديدا" واللغة العربية.. لغة الفتح الإسلامي، مما أدى إلى هيمنة اللغة الفرنسية على اللسان التشادي، وسيادة اللغة الدخيلة على لغة الشعب المسلم!

ويستطرد المؤلف في هذا المدخل الموضوعي إلى كشف البشائر التي طفت على ساحة الإبداع التشادي، مع

د . علي مطاوع

مطلع الألفية الثالثة، بانتعاشة سياسية نسبية، أدت إلى صحوة أدبية – على يد تلك النخبة، التي قدم لهم الكتاب الذي بين أيدينا، نماذج من إبداعاتهم، وما كان هذا إلا من وجود طفرة فكرية وذهنية، وما يشبه المقاومة الوطنية، والثقافة الإحلالية.

والنماذج الإبداعية التي اختارها الباحث تعكس بالضرورة، حقيقة

■ جاءت صحوة كتابة القصة باللغة العربية في تشاد، في آخر سنوات العقد الأخير من القرن العشرين.

الوضع السياسي والاجتماعي، نماذج أبانت عن مقدرة هؤلاء الكتاب – رغم حداثة تجربتهم – بالعربية-،على الابتعاد عن التقريرية والتسطيح اللغوي أو الفني، وقدرتهم الهائلة على الوصف الدقيق، والتعبير الموحي عن المواقف والشخصيات، والتوجه العميق إلى النفس الإنسانية، وعنايتهم بالتفاصيل الدقيقة وجزئيات الزمان والمكان، والبراعة في إخراج لوحات فنية مرسومة بعناية، كما برعوا في توظيف الأصوات واستخدامها فنيا لخدمة الأفكار، فللأصوات دلالات فنية، تستطيع أن تثير في دواخل الناس الفزع والخوف والرهبة والرعب، مما يدفع الذهن البشري إلى دائرة الوعي والانتباه، وهل أفريقيا إلا ظاهرة طبيعية صنعت إنسانا في شكل طبيعتها؟" نباح الكلاب ونواح النسوة ونحيب المقهورين وبكاء الصغار وصفير الصبية ووشوشة الرجال وصوت الأشباح والشياطين وضربات الطبول وصمت القبور وأزيز النار والهسهسة

هنا والوحوحة هناك..."

والقصص الأفريقي عامة – والتشادي نموذجا – يمتلئ بالخرافات والأساطير حتى أصبحت تلك الأساطير والخرافات واقعا ملموسا، يكاد يصدق في مجتمعاتها.. حياة وواقعا وممارسة وإبداعا، ويعلل الباحث هذا قائلا: "ربما

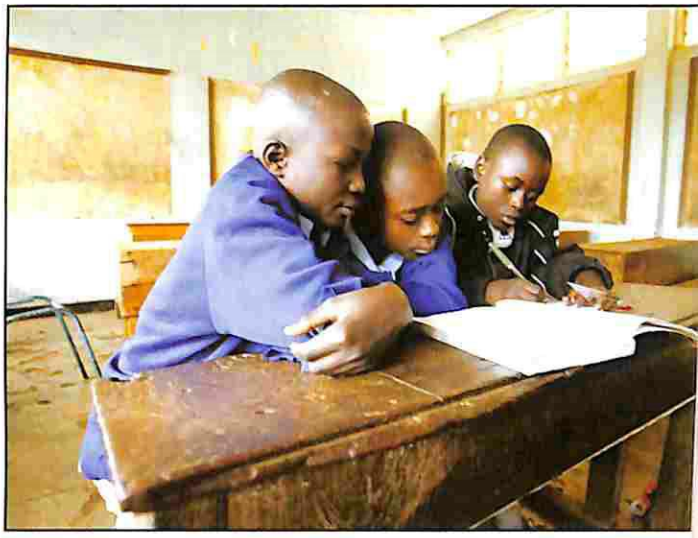

اتخذ الإبداع الأفريقي هذه الخرافات رمزا للعالم الخيالي الوهمي – الموازي للواقع المملوء بالصراعات والخوف والقهر والشعور بالضياع.

وجاءت عناية الباحث بالقصة التشادية المكتوبة بالعربية لأمور أهمها:

١- اهتمامه باللغة العربية وحبه لها، وقد وجد نفسه في بلد صارت فيه الفرنسية – هي اللغة المتحكمة.

٢- حداثة عهد الفن القصصي هناك، وما كان يحتاجه هؤلاء الأدباء (الرواد) من رعاية وتأييد.

٣- لم يعثر الباحث على دراسة.. أو دارس واحد يهتم بهذا الفن في بلاد لا تعرف الندوات ولا الأمسيات الأدبية ولا المقالات النقدية، حتى سعت إليه وسائل الإعلام لتأصيل وتأسيس حركة القصة ونقدها – كي تواكب حركة الشعر المكتوب بالفرنسية.

عكف الباحث على النماذج التي أخذت على عاتقها إتقان فن القصة والظهور به، وذلك كما يقول (...لأنني أومن بأن القصة القصيرة بإمكانها التعبير عن الحياة وحركة المجتمع).

ولأن القصة هي حالة فنية لإعادة صياغة الواقع من جديد، من هنا جاءت دراسته تلك – لتثبيت قواعد هذا الفن، فوضعت بذلك اللبنة الأولى في صرح القصة العربية الأفريقية . وإخراج هذا العالم المجهول إلى النور. قصص في صور مكثفة، تنطلق من الواقع، وتركب متن الخيال، مما يجعلها قادرة على الارتقاء بتفكير المتلقي وذوقه، وتجسيد أبطالها وشخوصها بتفاصيل حياتهم، كي يتعرفوا عليها، ويقفوا أمامها متأملين أنفسهم، فالعمل الإبداعي – بصفة عامة – وكما يقول الباحث – هو ظاهرة اجتماعية – تأتي استجابة لحاجات وتطلعات التجمع البشري.

بعد المدخل الموضوعي، جاء الباحث بدرس تطبيقي نقدي على الأصوات التي تمثل أول أضواء الفن القصصي في تشاد، وإن لم يجمعهم مذهب أدبي واحد.. لتباين ملامحهم الأدبية، واختلاف أعمارهم وتجاربهم. إلا أنهم – بالجملة – يعكسون بكتابتهم روح التحدي والصمود في نفوس أبناء الشعب المقهور. بغية تعميق الشعور الوطني وتعميق الأبعاد الإنسانية لقضايا المجتمع.

والأسماء التي رصدها الباحث.. وحقق نتاجها الأدبي، وأورد لهم النماذج التي تدلل على موضوعية وفنية نتاجها، هم يمثلون الجيل الأول لفن القصة هناك، وبما أنهم أصبحوا الرواد في هذا المجال، فقد وجب علينا أن نورد أسماءهم.. بترتيب العطاء الأدبي، أو الجودة الفنية.. وهم: الهادي محمد آدم ١٩٥٧، آدم يوسف موسى ١٩٧٥، إدريس آدم جمعة ١٩٤٠، عيسى عبد الله ١٩٤٨ ، آدم أحمد موسى ١٩٧٩، حسب الله مهدي فضله ١٩٧٤.

هؤلاء الكتاب استطاعوا أن يطلقوا رغباتهم المكبوتة، التي هي صدى لعالمهم الخارجي، متأثرين بهمومهم الذاتية،وصراعاتهم النفسية ■